من آثار هوجو

أمبـــير جلوا

(Imbert Gallois)

رمز الشبيبة المعذبة

للآنسة النابغة «ميّ»

بمناسبة انقضاء خمسين عاما على وفاة ڤيكتور هوجو، سيكون النظر فى كتاباته والتحدث عنها من خير الوسائل للاحتفاء بذكراه، بل هو أحسنها على الاطلاق، لأن الشاعر يعيش بآثاره لا بما يقول الناس عنه، ولا بما يصنعون « لتخليد » اسمه

ومن آثار هوجو ما هو خصيص بعصره، ومنها ما لن يستوعبه إلاّ المستقبل، ومنها ما هو لكلّ زمن وكلّ مكان، ومنها ما يخيّل أنه وضع لأيامنا هذه. ومع أن حكاية أمبير جلوا من أقل كتابات هوجو ذيوعاً، فهى أكثر ما تكون انطباقاً على حالة طائفة من الشبان فى هذا العصر، حتى فى هذه البلاد — مع اختلاف نوع الحافز لانفعال الغرام

ومَن يكون أمبير جلوا ؟

هو فتىً سويسرى، ووالده يعلّم الخطّ فى مدارس جنيف، استغواه اسم باريس، فراح يجرى وراء السراب الذى أغرى الكثيرين بأن تلك المدينة العظيمة هى عاصمة المقاصرة بالمواهب والمضاربة بالحظوظ، وأنّ كلّ لبيب باسل يجدُ فيها المستقبل الذى يستحقه وخلاصة ما يصبو إليه من نجاح وثروة وشهرة ومجد. « فمن دخلها بلا حذاء، خرج منها فى مركبة »

وقد دخلها أمبير جالوا فى اكتوبر ١٨٢٧، ومات فيها بؤساً ويأساً فى اكتوبر ١٨٢٨

عامٌ واحدٌ لا غير، لتحيا فيه جميع الآمال، ولتخيب فيه جميع الآمال. ويصف هوجو بطله شاباً مديدَ القامة، محنيّ الظهر قليلاً، برّاقَ العينين، فاحم الشعر، ورديّ الوجنتين، يرتدى رادنجوتاً أبيض، وعلى رأسه قبعةٌ قديمة. فى الجلة الأولى يتلعثم إذ هو يذكرُ اسمهُ واسم المدينة التى كان فيها طفلاً، ثم اسم المدينة التى يُريدُ أن يكون فيها رجلاً: هو فى الحادية والعشرين من عمره، وثقته بنفسه أقلّ من ثقافة فكره ومن خصب جنانه. هو يسعل قليلاً؛ وبحركة مرتبكة يحاول ارجاع قدميه إلى الوراء تحت الكرسى. ربما ليخفى حذاءه الرث ذا الخروق، أو هو يحاول تدفئة قدميه بعض الشىء بعد تسرّب ماء المطر إليهما من هاتيك الخروق. وبعد الكلمات الأولى يتركز صوته، ويتكلم بطلاقة، وتكاد تقتصر أحاديثهُ على شعراء انجلترا. كذلك عرفهُ الرجال الثلاثة أو الأربعة من كبار الكتاب والأدباء الذين رحّبوا به وشجعوه وساعدوه قدر المستطاع، مقدرين فكرهُ المشبوب وثقافتهُ وتأدّبهُ وحسن بيانه.

انتابتهُ فى الشهور الأولى حمّى باريس، فأراد أن يرى كلّ شىء ويسمع كلّ شىء. لم يُعنَ بأهل السياسة والتسوّس، ولا بالمتحذلقين الذين لا همّ لهم غير « قتل الوقت » والظهور، ولا بجماهير المتقاطرين لزيارة المكاتب والمتاحف، بل كان همّه روح باريس الحيّة، ورسالة باريس الفكرية، واتجاهات باريس فى تطوّرها الفنيّ. وحيثُ الجدلُ الأدبيّ واحتكاكُ الآراء فهو موجود، يساهم فى الحديث والمناقشة، ويطرحُ أفكاره الجديدة لمن يبغى النقد والتمحيص

كذلك كان فى الشهور الأولى. أما فى الشهور الأخيرة فاستسلم لليأس، وقد ملّ كلّ شىء، وزهد فى كلّ شىء. أترى مَثلهُ الأعلى كان أكبر من باريس أم أصغر ؟

ليس من يعلم. إلاّ أنهُ بات يوماً وقد أعرض عن الحياة، وكأنّه قد صمم على الموت بدون انتحار. وكان عارفو مواهبه يمكنونه من مزاولة بعض الأعمال الكتابية التى يسعى اليها ويعيش عليها الألوف، كتحضير الموادّ اللازمة لتأليف المعاجم، وجمع المعلومات المقتضاة لتدوين سير العظماء — العمود الواحد منها بعشرين فرنكا! فاشتغل قليلاً ثم أحجم. والعلة البطيئة التى لازمتهُ منذ الطفولة أخذت تتفاقم وتشتدّ بسرعة. وقد تلاشت آماله، واختفت من حواليه رؤى المجد المرجوّ، وامتهن حتى ما تركه من منثور ومنظوم، لعجز شعره ونثره عن تقديم شىء ولو صورة باهتة من نفسيّته المتفجّعة. وعندما قضى نحبه فى الثانية والعشرين كان موقناً بأن شيئاً من آثاره لن يبقى

أما ڤيكتور هوجو فيرى أنه كان مخطئاً، إذ بقيت منه رسالةٌ متقطعة كتبها فى عدة شهور الى أحد أصحابه السويسريين،

ولايقتصد هوجو فى إعجابه بتلك الرسالة التى يعتبرها « اعترافاً سرياً من نفس قليلاً ما تشبهُ غيرها ، على حين أنها صورة لجميع النفوس . وهذه هى ميزة تلك الرسالة : فهى الاستثناء الشاذ ، وهى الشيء الشائع المألوف »

* * *

ونشر هوجو الرسالة بنصها الكتمل ، فلم يحذف منها إلا الأسماء مراعاة لأصحابها . والى القارىء فقرات جوهرية من تلك الرسالة التى لايتسع المجال لنشرها كلها . فنى هذه الفقرات ترتسم من أميير جاوا صورته النفسية ، مع خيال الغرام الواحد الذى عاش عليه الى النهاية :

« اليوم ١١ ديسمبر ، ونحن فى الساعة الثالثة . لقد مشيت ، وقرأت . السماء جيلة ، وأنا أتألم فى تفطر . وصلت باريس فى ٢٧ اكتوبر ، فأنا هنا أذبل وتذهب قواى بلا رجاء . عرفت ساعات وأياماً بتمامها لامس فيها يأسى الجنون . متعباً ، فى انقباض حسىّ وأدبىّ ، متشنج النفس فى هذه الأحياء المليئة بالوحل والدخان ، كنتُ بلا توقف أهيم مجهولاً ، وحيداً وسط جمهور عظيم من الناس يجهل بعضهم بعضاً هم أيضاً »

« اتكأتُ ذات مساء على جدار جسر نهر « السين » ؛ ألوف الأنوار تتراءى الى بعيد المدى ، والنهر يجرى ، وكنتُ من الكلال بحيث لم أستطع مواصلة السير . وهناك ، وقد نظر الىّ بعض السابلة كأنى مجنون ، اشتدت علىّ وطأة العذاب فلم أقو على البكاء . أنت فى جنيف كنت أحياناً تمازحنى هازئاً بشدة تأثراتى . وأنا هنا ألتهمها وحيداً ، تلك التأثرات التى تنكل بى ، ولاتفتأ تهاجنى بلا مهادنة . كل شيء يتعاون على تمزيق نفسى : الاحساس الرهيب المتوالى الذى يُشعرنى بفناء زهونا وأفراحنا وأتراحنا وأفكارنا ، وتَزَعزُع موقفى ، ورهبة الفاقة ، ومرضى العصبى ، وخمول اسمى ، وبطلان مساعىّ ، وعزلتى حيال عدم اكتراث الآخرين وأثرتهم ، ووحدة قلبى ، وحاجتى الى السماء والحقول والجبال والأفكار الفلسفية أيضاً ، وفوق هذا — أجل ، واهاً ! فوق كل هذا ، الحنين الموجع الى بلاد الجدود . يتفق لى فى بعض الأوقات أن أحلم يقظانَ بكل ما أحببت ، فأمضى متنزهاً فى بلادى أطيل التذكُّر عما قاسيتُ من الآلام فى جنيف ، وبنادر المسرات التى ذقتها هناك . وملامح من أصدقائى وأهلى ، وطيفٌ من مكان قدَّسَتْهُ الذكرى ، أو شجرة ، أو صخرة ، أو زاوية شارع ، تتخايل لى ، فتنبهنى الى الواقع صيحات سقاء باريسى . واهاً ! كم أتألم عندئذ ! وكثيراً ما أعود الى حجرتى المنفردة عيىّ الجسد والروح ، فأجلس لأحلم أحلاماً مريرة مدلهمة فى بحران وهذيان » . . . « ألا ما أتعس الذى يأسف على ما قد يسارع الى لمنه عندما يجدهُ ! ليس لى حتى أن أستمتع بألمى ، لأن روح التحليل قائمة عندى على الدوام تشوِّه كلّ شيء »

« . . . . . سآمة نفس ذبلت فى سن الحادية والعشرين ، الشكوك القاحلة ، الأسف المبهم على سعادة تراءت لى فى إبهام أيضاً كمجد الغروب على ذرى جبالنا ، أوجاع حسية ، وأوجاع ايدياليستية ، الاقتناع بأن الشقاء متأصل فى النفس ، اليقين بأن الثروة على ما فيها من كثير خير لن تجعل السعادة تامة : هذا ما يفطِّر نفسى البائسة . واهاً ! يا صديق الوحيد ، ما أتعس أولئك الذين ولدوا تعساء ! »

« ومع ذلك ، يخيل إلىّ أحياناً أن موسيقى تعزف فى الهواء لسمعى ، وأن ألحاناً شجيةً غريبةً عن أنواء البشر تدوى من فلك إلى فلك لتنتهى إلىّ . ويخيَّل إلىّ أن ممكنات آلام جليلة هادئة تحط على أفق فكرى ، كأنهار قصىّ الديار فى أفق الخيال . غير أن كل شيء يضمحل بقسوة الرجوع إلى الحياة المحسوسة ، كلّ شيء ! كم مرةٍ قلت مع روسو : « يامدينة الوحل والدخان ! كم تعذَّب هنا صاحب تلك النفس الحنون ! وحيداً ، شريداً ، منكلاً مثلى — ولكن أقلّ شقاء بستين عاماً من عصر جادّ خطير الحوادث — كان فى باريس ينتحب ، وأنا أنتحب . وسيأتى غيرنا ينتحبون . ياللفناء ! ياللفناء ! »

« . . . إلى الآن لا أربح شيئاً ، مع أن لى أصدقاء مخلصين يجهدون ليجدوا لى عملاً . . . . . . »

« ياصديقى . أعود إلى رسالتى بعد أن بدأتها ، ثم استأنفتها . نحن فى ٣١ مارس والساعة الثامنة مساءً . أكاد أجنّ من فرط الألم ، ويأسى يفوق الاحتمال . تألمتُ اليوم ألماً يكاد لا يستطيع أن يتخيلهُ بشر . ثم داهمتنى الحمى فى هذا المساء ، وما الحمى المحسوسة سوى فضلة الحمىّ النفسية » . . . « اسمع » . . .
« قد اكتشفت شيئاً فىّ فعلمت أنى لستُ شقياً بسبب هذا الأمر

أو ذاك ، ولكنّ فيّ عذاباً مقيماً يتخذُ أشكالاً عدّة . . . أنتَ تعلم أني في جنيف كنتُ أتخيل أني لو نفذتُ إلى باريس كنت سعيداً . وأنا ، ياصديق ، هنا أعاشرُ أكبر الأدباء . . . . وأشعر أحياناً بنشوة الظفر في الأندية والسهرات والاجتماعات . . . وما كلّ ذلك ؟ . . . إن في أعماق حياتي سرطاناً آكلاً . . . منذ شهرين تجمعتْ قوى عذابي على نقطةٍ واحدة ، أخافُ أن أذكرها لك لفرط شـذوذها » . . . « ذاك المصدر المركزيّ لآلامي هو أني لم أولد انجليزياً . أتوسل إليك ألا تضحك ، فعذابي مبرح . العاشقون حقاً مهووسون لاعتكافهم على فكرة واحدة تستغرق جميع تأثراتهم . وأنا بعد أن كانت نفسي زمناً طويلاً فريسة جلبةٍ منوّعة ، أنا الآن مهووس أيضاً

« هناك منشأ غرامي بانجلترا : أنت تعلم أني أحب أن أعيش مع الموتى متعرفاً حياتهم السالفة فأقطنها معهم وأسايرهم في أحوال معيشتهم ، وأن أخلق بيني وبينهم تماطفاً يسرهُ وهمُ الزمن ، فلا يستطيع بعدُ أن يزعزعه وجودُ الأفراد . وأجد في انجلترا خمسين شـاعراً على الأقل ، زخرت حياتهم بالمغامرات ، وعمرت كتبهم بالفكر وبالخيال . أما في فرنسا فلا أجد ثلاثة . وفيما عدا ذلك ، قد كنتُ أحب من وطني الانجليزي حتى مزاعمهُ اللاغيـة . ففي مزاعم انجلترا كثير من الشاعرية وكثير من الخيال . وبدلاً من أدبٍ واحد ، فللانجليز آداب أربعة : الأمريكي والانجليزي والاسكوتلاندي والايرلندي ، تُـكتبُ جميعاً بلغةٍ واحدة ولـكلّ منها خصائص تميزها . فأية ثروة أدبية ! . . . .

« يوجد الآن ثلاثون شاعراً بين الأحياء ، كل منهم مستقلٌ بشخصيته لاينتحلُ طريقةَ غيره ، وكل منهم خصيب . ياللثروة ! ويالمغامرات ساثيبح المسكين ، وشلي ! وأيّ عملاق هو بايرون ! كم من كنز عند هؤلاء للنفس التي تحبُّ الفرار من العالم لتلتقي بأصـدقائها في مخدعها ! وكم ذا يعنّي الانجليز بكتّابهم ! إنهم يطبعون مؤلفاتهم في جميع الأحجام ، وأي ذوق في طباعتهم ، وكم من الخيـال في نقوشهم ! وانظر إلى الأمة نفسها . فذوو السحنة الخسيسة في انجلترا نادرون ندرة ذوي الهيئة الممتازة في فرنسا ! كل مافي تلك الأمة شاذّ . هناك تسود الحماسة في ألف شكل . هناك إلى جانب الآراء الوضعية الأكثر صرامة ، تجد الترهات الأكثر نضارة . هذا بلد يحوي المذاهب الوضعية والنظريات الأيديالستية : فرنسا وألمانيا معاً . هو وحده له من القوة ما يكفي ليفهم كل شيء ، ومن العظمة ما يكفي كيلا ينبذ شيئاً . وأية ذاتية ! إنك لتميز الانجليزي بين ألف شخص . أما الفرنسي فيشبه الجميع . ووفرة الشيع الدينية في انجلترا تثبتُ على الأقل خلوص النية في نفوس تحتاج إلى الرجاء ولم تجففْها الماديات . وشذوذ شبان الانجليز وتهوّرهم ينم على نفوس يتنازعها القلق » . . .

« أتألم لشعوري بأني في غير مكاني وسـط شعبٍ طائش ثرثار ، ملحد ، ماحل ، ذي زهوٍ وبرودة ، في حين أن الدنيا تحوي شعباً متديناً أو متطرفاً في التشكّك ، ولـكنه على الأقل لايعيش في غير اكتراث ، شـعباً تجد فيه الأصدقاء الخلصاء ، والنفوس المتقززة ، وحيث الطيش نفسه ذو نكهة غريبة شاذة وليس له هذه الفجة الماجنة الفاترة التي تجدها في فرنسا

« في المطعم الذي أتناول فيه طعامي يوجد إنجليز وفرنسيون . ويا للفرق ! جميع الفرنسيين تقريباً مشاغبون صخابون عاديون ، وجميع الانجليز نبلاء محتشمون . وختاماً ، يا صديق ، أظن أن صديقاً يستطيع التحدُّث إلى صديقه عن غرامه ، لأن انفعال الحب يلاقي صـدىّ في جميع النفوس وليس فيه ما يستدعي الامتهان . على أن ألمي العارم مـن الشدة بحيث لا أستطيع التبيان ، ولأنه جد شخصيّ خاص فقد يبدو سخيفاً مزرياً للذين لم يشعروا بمثله . ومع كل ذلك ، فهذا الجنون يشعرني بآلامٍ مروّعةٍ لا تطاق . وكل شيء يرهفها : مشهد شخص انجليزي ، أو كتاب انجليزي ، حتى السخرية الموجهة إلى الانجليز تلهمني التهاماً ... وهوسي هذا يجعلني أمجّ حتى الطمع في المجد . أودُّ أن أكون شهيراً في انجلترا ، وعليّ لذلك أن أكتب بالانجليزية . . . لو كنت انجليزياً ، بمزاجي هـذا المريض ، لما تألمت دون ألمي الحاضر ، ولـكن معنى الألم قد كان يتغير . يخيل إليّ أني لو ولدتُ انجليزياً لا سـتطعت احتمال جميع آلامي . ولو ولدت لورداً انجليزياً من أهل اليسار ، بنفسي ومزاجي كما هما ، لـكانت جميع ميولي وجميع أطماعي راضية قانعة ، وعند ما أقارن بين هذا الحظ وحظي الراهن أجنّ . . .

« استأنفتُ دراسة الانجليزية منذ شهرين بنشاط وحماسة حتى صرت أقرأ الشـعر بسهولة . أفكر في الذهاب إلى انجلترا

والكتابة بالانجليزية بعد أعوام . صاحبي ج . ل . يسلفني شعراء البحيرات الانجليز . إنهم يفتنونني . وقد استبدلت بالكتاب الذي أرسلته أنتَ إليّ مجموعة مؤلفات بارون في مجلدٍ واحد ، وتلوت فيه قصيدة صغيرة ، « الحلم » ، فكان لها عندي وقع الصاعقة » . . . « تقول السيدة الانجليزية التي تعطيني دروساً إني بعد الاقامة بانجلترا عامين اثنين سأجيد كتابة الانجليزية ، لأني منذ الساعة أكتبها كما يكتبها قليلون من الفرنسيين . والواقع أني أنفق نصف نهاري في دراسة الانجليزية

« إن هوسي شديد دائماً ، فيا للضني ؟ وأنّى وجهتُ نظري وجدتُ التباريح . ومسائل العيش عندي ما زالت موضوع عذاب . أشتغل الآن في كتابة ترجمة حياة ، ولكني في حاجة إلى النقود ، بل أنا في ارتباكٍ عظيم من جراء ذلك » انتهى

* * *

وقد علق هوجو على هذه الرسالة في تبسط ، وبانشائه وبتوسُّمه في اقتناص المعاني والاستشهادات ، مما يتعذّر نقله إلى العربية . إلا أني ألخّص من تعقيبه قوله : « عند ما نذكر أن الرجل الذي كتب هذا ، مات عليه ، تأملات من كلّ صنفٍ تتفجر من كل سطرٍ في هذه الرسالة الطويلة . أية رواية ، أي تاريخ ، أية سيرة هي هذه الرسالة ! » . . . « ليست هذه سيكولوجية تُدرسُ على السمع أو على الجثة ، ولكنها تُدرس في الأعصاب والأنسجة والعروق ، في اللحم الحيّ ينزُّ دماً ، في اللحم الذي يعول . أنت ترى الجرح وتسمع الصيحة

« كتابة خطاب كهذا في تفطُّر وإهمال وجمال ، دون بؤس كبؤس أمبير جلوا ، كتابة خطاب كهذا بمجرّد مجهود الابداع الأدبي تقتضي العبقرية . أمبير جلوا متألماً يوازي بارون . شيئان يجعلان الانسان شاعراً : العبقرية أو الغرام ، وهذا الرجل الذي كان نثره باهتاً وشعره فاتراً أصبح في خطابه كاتباً يستدعي الاعجاب . عند ما ينسى أن يطمع في أن يكون شاعراً وفاتراً ، ينقلب شاعراً عظيما وفاتراً عظيما . وسيبقى هذا الخطاب ، فقد اشتمل على خليط قد يكون أدهش من كلّ ما أنتجهُ الى الآن دماغ بشريّ في بابه ، وبتأثير تضاعف الألم الحسيّ والألم الأدبيّ ، والذين عرفوا جالوا يرون تشريحاً رهيباً ، تشريح نفس ، في هذا الخطاب المتوتر ، المضطرب ، الطويل ، حيث الألم يرشح قطرةً قطرةً مدى أسابيع وشهور ، حيث الرجل الذي يجري دمهُ ينظرُ الى دمه جارياً ، حيث الرجلُ الذي يصيح يصغي الى صوته صائحاً ، وحيث في كلّ كلمة دمعة »

« لاحوادث في هذه الحياة ، ولكن فيها أفكاراً . اروِ الأفكار تسرد حياة الرجل . بيد أن حادثاً عظيما يهيمن على هذه الحكاية المكدرة ؛ وهو أن مفكراً مات من فرط البؤس ! هذا ما فعلته باريس ، مدينة الذكاء ، بفتىً ذكيّ . . . »

« . . . أمبير جلوا ليس فقط أمبير جلوا ، بل هو في نظرنا يرمز الى طائفة معدودة من شباب اليوم الكريم . في داخل هذا الشباب عبقرية غير مفهومة تلتهمه ، وفي الخارج مجتمع ساءت أوضاعه ، يخنق الشباب والعبقرية . فلا منفذ للعبقرية المحاصرة في الدماغ ، ولا منفذ للانسان المحاصر في المجتمع »

« الذين يفكرون ويتولون الحكم لا يهتمون في أيامنا قدر الضرورة بحظ هذه الشبيبة الزاخرة بعديد الغرائز ، المتهافتة بحرارة ذكية ، وبصبر واحتمال على جميع اتجاهات الفنّ . جمهور هذه العقول الفتية المختمرة في الظل ، يحتاج الى الأبواب المفتوحة ، والى الهواء والنور والعمل والمسافة والأفق . ما أكثر ما يمكن عمله بهذا الجيش من الفطن ! كم من قناة يمكن حفرها ، وكم من سبيل يمكن تمهيدها في العلم ، وكم من مقاطعة يمكن غزوها ، وكم من عالم يمكن اكتشافه في الفن ! ولكن ، لا ! جميع المهن مغلقة أو مزدحمة . وهذا النشاط المنوّع الذي يستطيع أن يكون نافعاً مجدياً ، يُترك متراكماً ، مزدحماً ، مختنقاً في ضيق الأزقة . قد كان هذا الشباب يكون جيشاً ، فاذا به غمارة . إن تنظيم المجتمع سيء حيال المقبلين ، مع أن لكلّ ذي فكرٍ حقاً عند المستقبل . أليس محزناً حال هؤلاء المتألين من ذوي العقول ، المستقر نظرهم على الشاطىء المنير حيث كثير من الأمور الساطعة من مجدٍ وقدرةٍ وشهرةٍ وثروةٍ ؟ . . . »

* * *

هذا بعض تعقيب هوجو ، وهو في عطفه شفيقٌ نبيل . ولهجتهُ في كل هذا التعقيب تحملني على الاعتقاد بأنه عرف أمبير جلوا وأحبّه في حياته . ومن يدري ؟ قد يكون الخطاب موجهاً إليه لا إلى غيره ، وكون أمبير جلوا يرمز إلى الشبيبة المعذّبة صحيح من الناحية الواحدة